القيم التقليدية والفرد في روايات قاسم توفيق

مراد كافي أ.د. محمد شيرين تشكار

جامعة وان يوزونجو يل / تركيا / قسم اللغة العربية

(قدم للنشر في ٢٠١٩/١٠/١٥ ، قبل للنشر في ٢٠١٩/١١/٦)

ملخص البحث:

تتطرّق هذه الدراسة إلى دور الرواية في معالجة القضايا التي تربط الفرد بالمجتمع الذي يعيش فيه، من خلال الفضاء التخييلي السردي لروايات الروائي الأردني المعاصر" قاسم توفيق"، حيث ستكون بنية المجتمع العربي مسرحًا لدراستنا الموسومة بالعنوان (القيم التقليدية والفرد في روايات قاسم توفيق) . ويركّز بحثنا على مسألة علاقة الفرد بالنظام الفكري والثقافي للمجتمعات المبنية على الموروث الثقافي القديم، والعادات المتحجّرة، والأعراف البائدة التي لا تصلح للتطبيق أو العمل بها . وستحاول الدراسة الإجابة عن عدد من الأسئلة مثل: لماذا يجبر الذكر الأنثى على ارتداء الحجاب مبكّرًا وهي لم تحقّق بعد شروطه؟ ما أسباب تسلّط الأبويّة الذكورية على مصير الفرد– الأنثى بخاصة، وسلبه حقّ تقرير مصيره في الزواج، والتعلّم، والعمل. . .إلخ؟ لماذا تربط الأعراف التقليدية القديمة شرف المرأة باعتبارات واهية؟ ما سبب تضخّم الأنا الذكورية أمام الأنا الأنثوية؟

مفاتيح البحث: القيم التقليدية، الأعراف الاجتماعية، التقاليد الموروثة، الحرّية الشخصية، قاسم توفيق.

Traditional and Individual Values in Qasim Tawfiq Novels

Abstract:

This study deals with the role of the novel in addressing the issues that connect the individual to the society in which he lives, through the narrative imaginary space of the novels of the contemporary Jordanian novelist "Qasim Tawfiq", Where the structure of Arab society will be the scene of our study marked by the title (traditional values and the individual in Qasim Tawfiq novels).

Our research focuses on the issue of the relationship of the individual to the intellectual and cultural system of societies based on ancient cultural heritage, petrified customs, and obsolete norms that are not applicable or operable. The study will try to answer a number of questions such as: Why is a female forced to wear the hijab early when they have not yet met the conditions? What are the reasons for patriarchal domination of the individual-female fate in particular, and the denial of the right to self-determination in marriage, learning, work, etc.

Why do old traditional customs associate women's honor with flimsy considerations? Why is the male ego inflated before the female ego?

Key Words: Traditional Values, Social Norms, Inherited Traditions, Personal Freedom, Qasim Tawfiq.

مقدّمة

"قاسم توفيق" روائي وقاص، أردني الجنسية، ولكن أصوله فلسطينية، ولد في جنين بتاريخ ٢٧ أيار من عام ١٩٥٤م، بدأ الكتابة في العام ١٩٧٤ بنشر مجموعة قصصية قصيرة في الصحف والمجلات الأردنية والعربية، أصدر أول مجموعة قصصية أثناء دراسته الجامعية بعنوان (آن لنا أن نفرح) في عام ١٩٧٧.

صدر للروائي قاسم توفيق مجموعات كبيرة ومتنوعة من الأعمال الأدبية النثرية، وكان للرواية النصيب الأكبر من إبداعاته، إلى جانب مجموعات من الأعمال القصصية القصيرة. على مستوى الرواية نذكر أهم أعماله:

ماري روز تعبر مدينة الشمس (١٩٨٤)، عمّان ورد أخير(١٩٩٢)، ورقة التوت (٢٠٠٠)، الشندغة (٢٠٠٦)، رائحة اللوز المرّ(٢٠١٤)، صخب (٢٠١٥)، نزف الطائر الأخير (٢٠١٧)، ميرا (٢٠١٨)،.

يرى (قاسم توفيق) الأدب انعكاسًا للواقع، والأدب عنده ليس ميدانا للتأريخ، كما أنه ليس حقل تجربة تفرضها مناسبات أو ظروف تدفع بالمؤلف إلى إنجاز عمل فني ما، الأدب عنده أبعد من ذلك، يصل به إلى أنّ فوضى الواقع الحالي لم تعطِ الفرصة لخلق أدب يعبّر عن ظروف المراحل التي تمرّ بها المجتمعات العربية في أواخر سنوات العقد الثاني من الألفية الثانية؛ وعليه فهو مؤمن بمجيء زمن تُخمّر فيه المادة الأدبية شكلًا ومضمونًا، وتُعتّق ليطيب احتساؤها على حدّ تعبيره في لقاء صحفي أُجري معه. [١]

بدايةً، يُعرَّف مصطلح القِيم بأنّه:" الفضائل الدينية والخلقية والاجتماعية التي تقوم عليها حياة المجتمع الإنساني. وعلم القيم هو: علم يشمل القيم أو الفضائل بوجه خاص القيم الأخلاقية. " [٢] وواضح من هذا التعريف أنّ مصطلح القيم مرهون بالأخلاق الإيجابية الفاضلة، وينبذ السلبي منها، ويتجاوزه، ويُعنَى بفضائل الأخلاق، والعادات، والتقاليد الموروثة التي تخدم الكينونة

---

[١]- ينظر: **يعقوب**، أوس، قاسم توفيق الرواية والمخبوء والمهمل والممنوع والقبيح ثقافيًا، مقال إلكتروني منشور في مجلة ثقافات الإلكترونية، تاريخ النشر٢٠١٦/٠٤/٠٧، تاريخ الدخول إلى الرابط: ww.thaqafat.com، ٢٠١٨/٠٤/٠٤، ١٦:١٥).

[٢]- **عمر**، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، الطبعة الأولى، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٨، الجذر: قيم.

[٣]- **علوش**، سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٥، ص١٨٤.

الإنسانية، وتراعي حقوقها، وتضمن لها حرّية ممارسة ىرائها، وتكفل لها حرّية تقرير المصير. وفي تعريف مصطلح (القيمية) ورد القول الآتي:" يُقصد بالقيمية النظرية، أو وصف أنظمة القيم: الأخلاقية، المنطقية، الجمالية. ويُشار في السيميائية بِـ(القيمية) إلى نمط الوجود الباراديغماتي للقيم، في تعارض مع الأيديولوجي منها ." [٣]

يُعرَّف مصطلح التقليد الشفوي بأنّه:" نمط من الأوال غير المدوَّنة في الأعراف الاجتماعية، ويدخل في التقليد الشفوي كل الحكايات والخرافات والألغاز، والأغاني المتناقلة عبر الذاكرة." [٤] وورد مصطلح(التقليد) في معجم المصطلحات الأدبية لصاحبه(إبراهيم فتحي) بأنّه:" مجموعة من العادات والمعتقدات والمهارات، أو الأمثال ينقلها جيل إلى الجيل الذي يتلوه؛ أي هو مجموعة من المواضعات موروثة من الماضي..."[٥]. وبناءً على التعريفات السابقة، يمكن القول إنّ مصطلح القيم التقليدية يدلّ على مفهوم القيم التقليدية إلى منظومة العقائد، والقواعد الأخلاقية، والأعراف، والعادت الاجتماعية التي تنتقل من جيل إلى آخر. وبشكلٍ أوضح هي القيم القادمة من التراث، وليست من صُنع الفلاسفة، ولا تنتمي إلى نتاج تصوّرات الحكماء والكتّاب. وتتّسم المجتمعات العربية القائمة على ثيمة التقليدية بالتنوع الفسيفسائي؛ أي المجتمع الفسيفسائي نقيض للمجتمع المتجانِس، إذ يتألّف من عدّة جماعات تغلب هُوِيّاتها الخاصة على الهُوِيّة العامة، وتتّصف العلاقات فيما بينها بالتراوح بين عمليتيّ التعايش مع القيم المتوارَثة السائدة، والنزاع وعدم القدرة على الاتّفاق معها من حيث الفكر والتطبيق؛ ممّا يؤدي إلى حُدوث شرخ بين هذه الجماعات، ووقوعها في تنازعات من أجل إثبات الذات الفردية(الأنا)، والسعي نحو الاستقلاليّة بعيدًا عن ضغوطات القيم السائرة المفروضة. يُلحظ من قسمي المصطلح(القيم التقليدية) وجود غشاوة تعمي أبصار

[٤]- **فتحي**، إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبية، الطبعة الأولى، مؤسسة التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس- تونس، ١٩٨٦، ص ١٠١.

[٥]- **فتحي**، إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبية ، ص ١٨٤-١٨٥.

أنصارها من رؤية المحتوى السلبي والبالي لقسم لا بأس به من هذه الموروثات التي يرى فيها معارضوها أنّها مهترئة، ولا تصلح لأن يُعمَل بها في زمن الحداثة المجتمعاتية الراهنة.

بعد هذا التقديم التعريفي لمفهوم القيم التقليدية، والتي لا توجب –بالضرورة– أن تكون إيجابية هادفة، أو أنْ تحمل معاني الأخلاق المثلى، ننتقل إلى استقراء بعض من مظاهر تنازع القيم التقليدية الموروثة غير المقبولة واللامنطقية مع القيم الحرّة الديموقراطية في الفضاء التخييلي الموجودة في روايات" قاسم توفيق". وأولّ ظاهرة تطالعها الدراسة هي مصطلح الجنسانية.، إذ إنّ" أزمة الجنس في الأصل مجرد نتيجة لعلاقة مأزمة سلفا، وربما يكون الجنس قادرا على تصحيحها بدل تأزيمها . . . مادام الجنس حاجة من حاجات الإنسان التي لا يمكن الاستغناء عنها وهو مصدر بقاء النوع البشري على هذه الأرض".[٦]

لعل السوسيولوجيا(sociology) بوصفها علم يدرس المجتمعات والقوانين التي تحكم المجتمع ظهرت رؤاها وتفاصيلها واضحة في أسلوب (قاسم توفيق)، حيث دأب على النهوض بالسوسيولوجيا من أجل تفسير كثير من الظواهر الاجتماعية، وتحليل أسباب التغيرات الاجتماعية على مستوى الفرد والمحيط، ودراسة المجتمعات الإنسانية والمجموعات البشرية وما يخصها من قضايا نفسيانية وفكرية ومعرفية وعقائدية ودينية.[٧]

بداية لا بد للقارئ قبل الخوض في قراءة روايات (قاسم توفيق) أن يقف على مجموعة من النقاط الفارقة بين مفهومي اثنين متشابكين قد يرتبطان حينًا، ويفترقان حينًا آخر، هما: الحب والغريزة؛ أي الحب العاطفي والحب الغريزي المادي. لقد وقف المفكر (الكبير الداديسي) في كتابه (أزمة الجنس في الرواية العربية) عند هذه المنعطف الفكري الذي كثيرًا ما يصعب تجاوزه بنجاح؛ بمعنى قد يخلط كثير من الناس بين هذين المفهومين ويقعون في مغالطات وهم يفرزون خصائص كل واحد منهما . ومن جملة الفروق بينهما نذكر:

– الجنس عام، بينما الحب له معان شخصية.

[٦]– ينظر: **الداديسي**، الكبير، ، أزمة الجنس في الرواية العربية بنون النسوة، الطبعة الأولى، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ٢٠١٧، ص ٢٣٩.

[٧]– ينظر: **الحمداوي**، جميل، أسس علم الاجتماع، الطبعة الأولى، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ٢٠١٥، ص ١١٦.

– الجنس غريزة وحاجة، والحب إحساس وشعور.

–الجنس يُعنى بجيار الجسد، والحب يُعنى بجيار الشخصية.

– للجنس دافع للتخلص من توتر عضوي، بينما في الحب حاجة للفرار من شعور بالنقص.[٨]

ينضح المتخيّل السردي لِـ(توفيق) بقراءات مختلفة لصور الجنس والجسد والنزوة الغرائزية الذكورية، وقدم جعل(توفيق) من الجنس مفتاحًا يلج به إلى تفسير مجموعة من القيم التقليدية المغلوطة في الذهنية الذكورية التي تشرّع لنفسها ما يضمن سلامة مركزيتها وسمعتها على حساب قمع الذهنيات الأخرى المعارضة مركزية سلطتها. وقبل الخوض في تفاصيلها ارتأت الدراسة أنْ تعرّج على المفهوم العام لمصطلحي (المتخيّل والواقعي).

المتخيّل كما عرّفه أحد منظّري الأدب الفيلسوف واللغوي التشيكي (جان موكاروفسكي Jan Mukarovsky) هو بناء ذهني؛ أيّ إنّه نتاج فكري بالدرجة الأولى، وليس نتاجًا ماديًّا. في حين الواقع هو مُعطَى حقيقي وموضوعي. ويرى أن والعمل الفني يحيل إلى سياق الظواهر الاجتماعية، لكنّه – من وجهة نظر هذا الفيلسوف التشيكي– لا يطابق هذا السياق بطريقة تجعل القارئ يستطيع أن يأخذ هذا العمل مأخذ الشهادة المباشرة أو الانعكاس السلبي دون تحفّظات. فالأدب ينطلق من واقع، يستمدّ منه المادة الأدبية المدروسة ليعبّر– بعد ذلك– عن واقع علاقة المتخيّل بالواقع[٩].

حاول قاسم توفيق في روايته (صخب) رصد بعض ذبذبات أزمة الجنس في الريف العربي، الجنس المتأتي من سلطة الدين، وجبروت الرجل، وقد تكون كلمة أزمة عاجزة عن التعبير عن هكذا واقع وهكذا علاقة[١٠].

---

[٨]– **الداديسي**، الكبير، ، أزمة الجنس في الرواية العربية بنون النسوة، ص ٩–١٠.

[٩]– ينظر: **قاسم**، سيزا، و: **أبو زيد**، نصر حامد، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة(مدخل إلى السيميوطيقا، مقالات مترجمة ودراسات)، دراسة مترجمة لِـ: (جان **موكاروفسكي**) بعنوان: الفن باعتباره حقيقة سيميوطيقية، شركة دار إلياس العصرية، القاهرة، ١٩٨٦، (ص ٢٨٥– ٢٩٢).

[١٠]– ينظر: **المرنيسي**، فاطمة، ما وراء الحجاب (الجنس كهندسة اجتماعية)، ترجمة: فاطمة الزهراء أزرويل، الطبعة الرابعة، المركز

يسرد الكاتب على لسان (هند) في رواية (صخب) حديثها عن مرحلة حرجة مرت بها أمها وهي طالبة في مدرسة الجد (فرج)، حيث بثّتِ الأم شكواها لطفلتها الصغيرة التي بالكاد استوعبت فحوى الشكوى؛ حذّرتها من شذوذ الجد الذي مورس بحقها كأم، وسيُمارِس بحقّ الحفيدة مستقبلًا. يغوص (قاسم توفيق) في رواية (صخب) في حيثيات مجتمع عربي ريفي، يضع القارئ أمام مشهدين اثنين: الأول صورة المعلّم ورجل الدين الجدّ (فرج) وما يتمتّع به من سلطة بحكم كونه المعلّم الأوحد في القرية للقرآن واللغة العربية، والثاني: معاناة المرأة من تسلط الرجل عليها بذرائع شكلية كالعفة والسترة، والرجل قوّام على المرأة و. . .إلخ. أزمة الجنس تجلت واضحة في صورة الجد (فرج) الذي لم يصن حرمة ابنه المتوفى في زوجة ابنه وحفيدته، واستغل مفهومًا تقليديًّا منطوي تحت مُسمّى الوصاية الشرعية الذكورية على حفيديته وزوجة ابنه المتوفى؛ لينصّب نفسه وصيًّا على أمورهما دون أدنى مراعاة لحقوقهما الإنسانية. وللقارئ أن يتأمل الحديث الذي جمع الأم مع البنت على لسان الأخيرة:

" حكت لي –أي الأم– وأنا مازلت صغيرة غير بالغة أنها كانت ترى في عيني جدي نظرات مبهمة لم تكن لشدة طفولتها أن تفهم معناها، كانت وكأنها تحذرني منه أنا حفيدته لكن دون أن تفصح عما في داخلها. لقد عرفت أن أمي قد أبعدت هذا الرجل عن كل مواضع القيم والأخلاق وأنه لم يكن يمثل لها سوى إنسان مهووس لن يتوانى عن فعل أي شيء مقابل أن يحصل على مايرغب في الاستحواذ عليه. الشرف أو الأخلاق كانت تقول لي إنها كلمات لم تدخل قط في ثقافة أو حياة هذا الرجل. . . . كل هذه الأشياء حكتها لي أمي، أو تبادرت إلى ذهني بعد أن أخرجت أمي من جوفها هذا السر الذي من المفترض أن يموت معهما" .[١١]

في مقاربة جريئة يضعنا (قاسم توفيق) أمام الفكر الجنسي للجدّ، حيث إنه يرى في كريمة امرأة عاهرة، ولا يكفيها رجال القرية لإشباع رغبتها، وأنه لولا محاولاته في إسكات

الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب، ٢٠٠٥، ص١٠١ وما بعدها.

[١١]– **توفيق**، قاسم، رواية صخب، الطبعة الأولى، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١٥، ص٢٥–٢٦.

وحش الشهوة والرغبة الجنسية الأنثوية الغضّة التي لدى كريمة لضاعت سمعة العائلة، وترك (توفيق) القارئ في حيرة وهو يقرأ الفكر التبريري لمفهوم الإثم الجنسي الذي يبرر فيه الجد خطاياه وشذوذه، يقول الراوي:

" يقول لها –أي الجد لكريمة– أنت ساقطة لا يكفيها كل رجالات القرية، يدعي أنه يعرف أخلاق كريمة منذ صغرها، أنّها ساقطة تشتهي كل الرجال، وأنه لولا إسكاته لوحش الشهوة الذي فيها، وخروجه عن طوع ربّه بفعله معها لم يكن ليحمي اسم ابنه المرحوم، وسمعة عائلته من أن تُلوَّث من عاهرة مثلها. لقد أقنع الجد نفسه أن الله سيجزيه خيرًا لقاء فعله معها، وأنه هو الذي يقرأ النفوس ويفهمها لكثرة ما عرف منها بملكة أعطاه إياها الرب، لقد قرأ في نفس كريمة تلبّس الشيطان لها فحماها من الشرورة الكبيرة التي لا تعود بالشر عليها فحسب بل على أولادها من بعدها . . . ".[١٢]

لقد صوّر (توفيق) الرجل في رواية (صخب) ميّالًا للاغتصاب لا للمعاشرة الجنسية، غير آبه بالنتائج، معتبرًا المرأة هي المسؤولة عن كل ما ينتج عن أيّ علاقة جنسية.

هذا ما حصل مع (كريمة) والدة (هند)، فهي آثمة، والجد مأجور خيرًا على سلوكياته معها ومع حفيدته باسم الدين متذرعًا بحماية اسم ابنه المرحوم، وسمعة العائلة.

نقف عند مشهد مؤثر آخر جمع (كريمة) بابنتها (هند) وهي تجهّزها نفسيًّا وجسديًّا لمرحة الانتقال إلى مدرسة المدينة، هذه المدرسة التي شكلت ملاذاً للأم وابنتها من سطوة الجد (فرج)، ومنظرات رجال القرية الموبوءة بالشهوة. هنا يلقي الكاتب برمزية الحجاب باستخدامه تراكيب مختلفة، فتارة يصفه بأنه قطعة قماش، وتارة يستنكره بقوله: هذا الحجاب، وتارة يصفه بأنه وسيلة خنق للنفس والروح، وثقله لا يحتمل، وكأنه حمل ثقيل على حدّ تعبيره على لسان الراوي:

" وعندما تيقنت أنها سوف تذهب إلى المدينة صارت تحس بأنها قد سُجنت تحت قطعة القماش هذه التي أخفت شعرها وملامح وجهها الجميلة، حتى أنها صرحت لأمها بأن هذا الحجاب يخنقها ويجعل أنفاسها ثقيلة. كريمة كانت تعرف ذلك، وتعرف أيضا بأنها إن سمحت لابنتها بخلع الحجاب فسوف تُنعت هي وابنتها

[١٢]– **توفيق**، قاسم، صخب، ص ٥٨–٥٩.

بكل الصفات القاسية من أهل القرية. . . هذا قدرنا، ويجب أن نعيشه. . . . حاولت أن تخفف عنها ثقل الحمل الذي أُسقط على رأسها بأن أخبرتها بأنها سوف تعتاد عليه في المدينة مثلما اعتادت عليه هنا . . ." [١٣]

ومردّ استهجان الكاتب للحجاب المرمز بقطعة قماش يعود إلى أنه أُلبِس رأس فتاة صغيرة هي بعيدة عن نطاق تطبيق العرف الاجتماعي القروي في تحجيب الطفلات ولو حتى لم يبلغْنَ، فقد تظهر عليهنّ علامات الأنوثة دون علامات البلوغ التي تتكلف بها الفتاة بتطبيق القواعد الشرعية[١٤] .الحقيقة أن (قاسم توفيق) لا يستهجن الحجاب كعادة أو كعرف، هو لا يرفضه كفرض واجب على المرأة المسلمة البالغة، بل في حقيقة الأمر هو ينكر على المجتمع تقييد شرف المرأة وسمعتها بواسطة الحجاب، هو يمتعض من ممارسات المجتمع المتقوقع على قيمه التقليدية المنافية للحدود الشرعية، ويستنكر سلوكياته المانعة للحريات الشخصية، ويزدري مسألة إلزام الفتاة بارتداء الحجاب كرهًا لا طوعًا، وهي لم تبلغ بعد . وهو يعلم أن الإكراه هنا سيولد ردة فعل سلبية، نتائجها كارثية مثلما حصل مع (هند) بعد أن باعت نفسها لهوى المدينة، منتقمة من الموروثات المتحجرة التي تشرّع ما يناقض أحكام الدين، فكان هروبها إلى مجتمع المدينة بمنزلة انسلاخ عن العادات الناظمة لبيئتها الريفية

في مشهد من مشاهد رواية (رائحة اللوز المر) يتحدث(توفيق) عن قضية الزواج التقليدي المتعارف عليه كقيمة تقليدية، وكعُرف اجتماعي يضمن للأنثى سلامتها من كيد ألسنة المجتمع إنْ تأخّر زواجها . (مها) واحدة من الشخصيات الأنثوية التي تزدحم بها الرواية، ولكل واحدة منهنّ قصة مع بطل الرواية. في حوار سريع بين(مها) والبطل يبثّ الكاتب على لسان بطله مشاعر أسفه وازدرائه للمصير الذي آل إليه مستبقل(مها) وقد أُجبِرَت على الزواج التقليدي النمطي بحكم العادة الاجتماعية، وهي ذات الفكر المتحرّر، ولطالما رفضت فكرة الزواج

---

[١٣]– **توفيق**، قاسم، صخب، ص ٥٣ .

[١٤]– **طالبي**، حفيظة، تعدّد أشكال الحجاب وعلاقته بالتغيير الاجتماعي في المجتمع الجزائري، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان– الجزائر، ٢٠١٤، ص ١٠٧ وما بعدها .

المبنيّ على العرف الموروث، ولا يُلتَفت فيه إلى الحبّ والرومانسية والتكافؤ، لتجد نفسها مُجبَرَة عليه. في جلسة صراحة تبوح (مها) لعشيقها السابق(بطل الرواية) بزواجها بعد سنين من العزوف عن هذه العادة الاجتماعية، وقبل تأهّلها أرادت إخباره بقرارها . هنا يردف الكاتب على لسان (الراوي البطل) متدخلاً وسط زحمة المشاعر المختلطة ليقول:

" الصبية التي كانت تدعوه للرقص وإن تعلل بالتعب تصفعه وتقول له بهمس الساحرات: سأهب لك الحياة. "مها" التي تتوسل إليه أن يجعل منها امرأة، كيف لهذه أن لا تعود ثائرة. هذا ما كان من أمرها في قديم الزمان حتى دجّنها الزواجُ والبيت والأولاد ."[١٥]

يرمز (توفيق) بالفعل (دجَّنَ) المنسوب صفةً إلى الفاعل (الزواج)، يرمز إلى الزواج كعادة متوارثة، كما أنّ رمزية الفعل (دجّن) وأصله (دجَنَ : داجن) تجاوزت المعنى المعجمي المحصور بِ كلّ ما ألف البيوت وأقام بها من حيوان وطير للذكر والأنثى[١٦]، فقد ألبَس الكاتب هذا الفعل دلالةً رمزية مفعمة بإشارات وأد معاني الحريّة والاستقلالية وحقّ تقرير المصير، هذه الإشارات يدجّنها الزواج في كينونة الأنثى، ويجعل منها حيواناً أليفاً مطيعًا لصاحبه(الزوج)، فتسقط عند عتبات الزواج سرّ الأنوثة، وتتهاوى ركائز المرأة وأعمدتها كرمز للتجدد والتحرر والثورة ضدّ كل ما هو روتيني من فكر متبلّد أو عادة اجتماعية تقليدية يفرضها العُرف على الأنثى بأن تتزوج بكائن بشري مثلها وهي بكامل قواها العقلية، ولكن روحها المتحرّرة تنبذهُ؛ لإيمانها أنّه مغصوبة عليه، ولقناعتها أنّه سيقتل في داخلها أجمل ما تملكه، وهو الحريّة[١٧] .

---

[١٥]- **توفيق،** قاسم، رائحة اللوز المرّ، طبعة خاصة بالمؤلف، دائرة المكتبة الوطنية، عمّان، ٢٠١٤، ص١٨١ .

[١٦]- **أنيس**، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، الطبعة الرابعة، تحقيق: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٤، الجذر: دَجَنَ.

[١٧]- ينظر: **ستيورات مل**، جون، استعباد النساء، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٤٣-١٤٤ .

هنا، يعلن الكاتب عبر هذه الرمزية رفضه أي نهاية مأساوية لكل من هنّ بمنزلة (مها) شخصًا وفكرًا وتحررًا، والزواج هو هذه النهاية المأساوية التي ستقتل تبعياتُها الأسروية والعائلية شخصَ (مها) رويدًا رويدًا، وقبل قتلها ستجعل منها عبدة لسيدها الذكر[١٨]. فالزواج المبني على أسس تقليدية موروثة أشبه بعادة اجتماعية، تدّعي هذه العادة أنّه يصون حرمة المرأة، ويحفظها من أن يلوك المجتمع عفّتها بألسنتهم إن هي تجاوزت عمرًا معيّنًا،؛ فُيصَار إلى أنْ تهرب المرأة من شبح نعتها بالعانس، وتصدر بحقّها أقاويل جائرة تفسّر عنوستها بقذف شرفها، وتلطيخ سيرتها، وتشويه ماضيها، والتشكيك في سلوكياتها. فالزواج في هذه الحالة سترٌ لها، ولا تهمّ- عندئذٍ- معاييره الاجتماعية، كالتكافؤ، والتجانس، والتفاهم، والاحترام المتبادل بين الطرفين.

يطرح(قاسم توفيق) في رواياته نماذج مختلفة للمفهوم الأبوي في العرف التقليدي لبعض من المجتمعات العربية التي تشكّل البيئة المكانية لأحداث رواياته. إنّ النظام الأبوي بمفهومه العام يقضي بأنه نظام اجتماعي يرتكز على روابط تراتبية بين أفراد المجتمع، يخضع بموجبها البعض للبعض الآخر، ويأتمر بأوامره ونواهيه؛ لذلك يجد الفرد نفسه في مثل هذا النظام، وخصوصًا في المجتمعات المتخلفة، محكومًا بعلاقات عمودية غير متناظرة في تعالقاتها، وبعيدة عن مفاهيم العدالة والمساواة، يخضع فيها الأدنى للأعلى؛ أي الصغير للكبير، والمرأة للرجل، والابن للأب، والأخت للأخ، والرعية للراعي، والفقير للغني. وانسجامًا مع هذه العلاقات التراتبية العمودية يُصنّف الأفراد والجماعات في السلّم الاجتماعي[١٩]. وقد أشار الباحث الاجتماعي الراحل(هشام شراب) في كتابه (النظام الأبوي وإشكالية تخلّف المجتمع العربي) إلى السلطة الأبوية في المجتمع العربي بأنها تشكل أهم مظهر من مظاهر النظام الأبوي(الذكوري) فيه، وهي تمتدّ في

---

[١٨]- ينظر: **ليرنر**، غيردا، نشأة النظام الأبوي، ترجمة: أسامة إسبر، بدون رقم طبعة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، بدون تاريخ، ص١٥٣.

[١٩]- ينظر: **الأعرجي**، علاء الدين، "هشام شرابي" بين النظام الأبوي والعقل المجتمعي، مقالة في جريدة القدس العربي ، العدد: ٥١٦٧ يناير، قسم ألدب والفنون، الصحيفة رقم(١٠)، تصدر من لندن، ٢٠٠٦، ص١٠.

طغيانها لتصبح أقرب إلى مفهوم الذهنية الأبوية- كما سمّاها- تتميز بنزعتها السلطوية الشاملة التي ترفض النقد ولا تقبل بالحوار إلّا أسلوبًا لفرض رأيها فرضاً؛ ممّا يقرّبها من أن تكون ذهنية إقصائية قمعية، تسعى إلى امتلاك الحقيقة الواحدة التي لا يشوبها الشكّ، ولا تقرّ بإمكانية إعادة النظر وفق رؤى الطراف المقابلة الأضعف مكانة ومقامًا [٢٠].

في رواية(البوكس) يستعرض(قاسم توفيق) عُرفًا تقليديًّا متداولًا في مجتمع العائلات الفقيرة، هذا العرف يقتضي بهيمنة الذكر الأب على باقي أفراد العائلة، وسلبهم أبسط حقوقهم وحريّاتهم. وبطل الرواية(أحمد) والملقّب بـ(البوكس)، تطالعنا أحداث الرواية على أنّه نشأ طفلًا فقيرًا في مجتمع العشوائيات، محرومًا من أبسط حقوق التربية السليمة، والده ذو نزعة تسلطية، وأمّه جاهلة أميّة، موكلةٌ إليها مهمة تربيته في ظلّ انشغال وقت الأب بساعات عمل طويلة، تستهلك يومه كلّه تقريبًا؛ إذ يعمل كحارس مصنع. هذه النوع من العائلات له فلسفته الخاصة في التعامل مع الطفل، إذ تقتضي مفاهيم الأب التقليدية أن يحلّ مشاكل فشل أولاده بحلول سلبية تظهر مدى رجعية الفكر الذهني الذكوري القاصر الذي يسيطر على قراراته. الطفل(أحمد) فشل في دراسته لفشل والديه في تأمين الجوّ المناسب لنجاحه، والأب ارتأى أنّ شقاء عمله حجة دامغة لا تقبل تحقق مصير الفشل لابنه في المدرسة، ولا حجّة للطفل بالرسوب طالما هو في كنف أمّه؛ ولذلك قرّر إخراجه من المدرسة، وزجّه في ميدان العمالة على الرغم من صغر سنّه، وبراءة طفولته. يحكي الراوي قصة إخراج الأب لابنه(أحمد) من المدرسة، وزجّه في ميادين العمالة الرخيصة في مجتمع شعبي متخلف متخلف وصفه الراوي بقوله:

" أحياء مرعبة كما يصفها الناس، وخطرة مثلما تصفها الشرطة. الشؤون الاجتماعية وعلماء الاجتماع لا يفكرون بزيارتها . . ."[٢١]. هذه هي البيئة التي ستحتوي(

[٢٠]- ينظر: **شرابي،** هشام، النظام الأبويّ وإشكاليّة تخلّف المجتمع العربي، نقله إلى العربية: محمود شريح، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٦-١٧. .

[٢١]- **توفيق،** قاسم، رواية البوكس، الطبعة الثانية، دائرة المكتبة الوطنية، عمّان، ٢٠١٤، ص ٣٨.

أحمد) بعد أن أخرجه والده من المدرسة بحجّة أنّه مزّق غلاف كتابه المدرسي، في مشهد درامي ينتقم فيه الأب الفاشل من فشل ابنه الدراسي؛ فيعاقبه بما يفوق الذنب المرتَكَب، يقول الراوي:

" قرّر أبوه بأن يجب أن يترك المدرسة بعد أن أمسك بيده كتاب القراءة الفصيحة ولاحظ أنه بلا غلاف وبنصف حجمه العادي. شدّه من أذنه وسأله:

– أين باقي الكتاب؟

ردّ وهو يرتجف:

– لقد سلّموني إياه ناقصًا .

– كيف تسلّمك المدرسة كتابًا ناقصًا يا ابن الكلب؟

لم يجد مفرًّا غير أن ينطق بالحقيقة:

– مزّقته.

– لماذا ؟

–كنتُ أمزّق الدرس الذي ننتهي من دراسته.

أجاب باستسلام ويأس محاولًا تجنّب صفعة قاسية تنهال على وجهه الصغير الطري. . .

يا ولد ماهذه الفصاحة؟ الدرس الذي ينتهي لن يعود له لزوم،،، ها ؟

كفّ عن الضحك لبرهة، استجمع أنفاسه ثم قرّر:

– ابتداء من الغد سوف تذهب لقهوة محروس، هذا هو المكان الذي يناسب أمثالك." [٢٢]

كانت محاكمة الأب العقلية لوضع ابنه سريعة، إذ أخضعه لمحكمة ميدانية كان فيها هو القاضي والمدَّعِي، وكان ابنه الصغير(أحمد) هو المتّهم بلا محامي دفاع، أُصدِر قرار المحكمة بالحكم على الولد بالخروج من المدرسة، والأشغال الشاقة في مقهى محروس. هو مشهد تصويري أشبه بجلسات القضاء في المحاكم، ولكن المحكمة كانت ذكورية، ذات سلطة أبوية تشريعية نافذة، لا تقبل النقض أو الاستئناف.

إنّ تناول الاقتباس السابق من منظور علم التداولية من شأنه أن يظهر القيمة الفنية لهذا الاقتباس، إذ فطن(قاسم

[٢٢]– **توفيق**، قاسم، البوكس، ص ٥٦–٥٧ .

توفيق) لقيمة الكلمة في إيصال روح المشهد الروائي الذي يقدّمه؛ وعليه، فقد استنفر رصيده مخزونه من الكلمات؛ ليقتنص أكثرها دلالة على تصوير البعد النفسي للموقف الحاصل بين الولد وابنه، هذا الموقف المبني على أرضية هشّة قوامها طين جاف من العقلية التقليدية التي تحمل قيمًا موروثة سلبية، تعالج المشكلة بحلول أكبر وأخطر من حجم المشكلة نفسها. يعرّف اللغوي والناقد(جيوفري ليتش Geoffrey leech) مصطلح "التداولية" في كتابه(مبادئ التداولية) بأنه" علم يدرس كيف أنّ ضروب التلفّظ بالعبارات تكون لها دلالات في مواقف معينة" [٢٣]. وأشار في مؤلفه هذا إلى قضية تنوّع وظيفة قوة فعل الكلام، ومن ضمن أفعال الكلام شرح قضية البيانات والقرارات، وأشار إلى أنها أفعالُ كلامٍ، إنجازُ نجاحِها يحدِثُ تطابقَ المحتوى والواقع، من نحو: الاستقالة، والانصراف، وإيجاد التسمية، وتحديد الوظيفة، والطرد، وإبرام الحكم والقضاء، ويرى(ليتش) أنّ هذه التصرفات هي صنف من أفعال الكلام، إذ تُنجَز في العادة من لدُن من من يُؤذَن له أن يقوم بالفعل، كالقاضي صاحب مطلق السلطة لأن يقوم بإصدار حكم وفق ما تقييمه للوضع، فيستعمل لذلك لغة تحمل في مضمونها قوة الحكم الصادر[٢٤]. بمقاربة مفهوم(ليتش) لوظيفة قوة فعل الكلام ضمن إطار التداولية نجد أنّ(قاسم توفيق) قد استعار للقاضي(الأب) ضروبًا من التلفّظات الدالة على قوة أحكامه الفعلية في مشهد محاكمة ابنه(أحمد)، من مثل: (قرّر، يجب، ابتداءً من الغد سوف تذهب لقهوة محروس، هذا هو المكان الذي يناسب أمثالك. . .)، وشخّصه على هيئة قاضٍ يتمتّع بسلطة قوية تخوّله استخدام هذا النوع من أفعال الكلام التي تطابق المحتوى والواقع المَعِيش في الرواية.

بالانتقال إلى رواية (حانة فوق التراب) نقع على صورة ذكورية أخرى للنموذج الأبوي، لا تختلف عن سابقاتها من حيث الفكر التسلّطي، والهيمنة، والرؤية الذهنية الاحتكارية التي ترى في امتداد النسل وضمان دوام اسم العائلة إحدى مبرّرات السلوك التعنيفي المُمَارَس بحقّ التابعين الخاضعين لسلطة الأب ضمن محيط مصغّر تمثّله العائلة، وضمن محيط

[٢٣] – **ليتش**، جيوفري، مبادئ التداولية، ترجمة: عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٣، ص٥.

[٢٤] – ينظر: ليتش، جيوفري، مبادئ التداولية، ص ١٤٢.

أوسع يمثّله مجتمع العشيرة. (البلدة) الشاهد على جزء كبير من أحداث هذه الرواية. فالمتخيّل الروائي لم يأت على ذكر اسم البلدة واكتفى بتسميتها بهذه الكلمة. شخصية الأب هنا يجسدها والد بطل الرواية (عايد الكهلان). وقد أشار (قاسم توفيق) في عتبة الرواية تحت بند" إيضاح مهم جدًّا" إلى أنّ عناصر روايته هي من صنع الخيال، فقال:

" أسماء الأماكن والشخوص من صنع الخيال؛ أي أمور افتراضية"، قاطعًا الطريق بهذا الإيضاح أمام احتمالية أن تكون شخوص الرواية وأماكنها وأحداثها ضربًا من ضروب الواقع المَعِيش . والقول السابق يُعَدّ بمنزلة خطاب موجّه إلى القارئ، ومن شأنه أن يفضح اللعبة القصصية، وهو من جهة مقابلة، اعتراف بوجود طرف متلقٍ يمثّله القارئ؛ ممّا يعني – بالضرورة– الإقرار بأنّ هذه رواية، وهو ما تتردّد الروايات الواقعية في الإقدام عليه، والتصريح [٢٥]. فالروايات ذات الصبغة الواقعية تسعى إلى التظاهر أنّها لا تمسّ الرواية أبدًا كجنسٍ أدبي، بل هي تميل لإيهام المتلقّي أنّها تقارير تحاكي الواقع، هي تؤَطَّر بالعالم التخييلي الذي ينسج أبعاده الكاتب. فإدراك وجود قارئ يعني مغامرة صاحب الرواية بتهديد مسحتها الواقعية.

أُجبر (عايد) بقرار جائر من أبيه على أمرين اثنين لم يكن له فيهما فرصة للاعتراض أو التغيير، أولهما: ترك المدرسة والانخراط في سوق العمالة، وثانيهما: الزواج بابنة عمّه القبيحة نزولًا عند رغبة الأب؛ لأسباب تتعلق بالموروث الاجتماعي سنأتي على ذكرها في مقام لاحق. فما كان منه إلّا أن انصاع مُكرهًا للمصلحة التي ارتآها والده من هذين الأمرين، يقول الراوي على لسان (أيهم) ابن (عايد) يحكي ماضي أبيه:

" . . . أكثر ما كان يوجع عايدًا في تلك اللحظة هو فقدان الأما، فهو عندما تزوج ابنة عمّه القبيحة مُجبَرًا كان يأمل أن

[٢٥]– ينظر: إيجلتون، تيري، كيف نقرأ الأدب، ترجمة: محمد درويش، الطبعة الأولى، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٣، ص ٤٢–٤٣.

تكون امرأة صالحة، وعندما رضخ لقرار أبيه بعدم إكمال دراسته والعمل في البلد كان يأمل بأن يرتقي بمهنته. . . "[٢٦]

إنّ مفردتي(الإجبار، الرضوخ) كفيلتان بشرح السلطة الأبوية التي حرمت(عايد) حقّ تقرير مصيره، وبإحالة هاتين المفردتين إلى سياقهما نجد توجّهًا ذكوريًّا من طرف الأب صوب قمع ولده، وتجاوز حرّياته الشخصية في ترسيم طريق حياته ومستقبله، وقد استخدم الكاتب الفعل(رَضَخ) بصيغة المبني للمعلوم ونسب الفاعلية لِـ(عايد)، ولم يستخدمه بصيغة المبني للمجهول(أُرضِخ)، وفي هذا دلالة على عدم المقاومة، والانصياع التام لإرادة الأب كُرهًا، والقبول بتنفيذ الفعل دون مجادلة أو محاججة.

في يوم عرسه المشؤوم يبثّ(عايد) طيف والده يلحق به وهو يهمّ بزوجته في ليلة الدخلة، وقد لقنّه تعليمات العملية، في مشهد يظهر تبعية الولد لأبيه في مثل هذه المجتمعات حتّى في أشدّ المواقف خصوصية وسرّية. يقول(عايد) واصفًا ليلته تلك:

" عاركت نفسي وجسدي حتى أكون لائقًا لهذه الليلة، ليس من السهل احتمال انتظار الحكم على رجولتي من عشرات النساء والرجال والأولاد والدفوف والبنادق الواقفة خلف الباب الذي يفصلنا عنهم، ومنها هي بالتأكيد، وضعت في أذنيها وعلى جسدها لتعليمات التي تلقيتها ممن سبقوني بالزواج، ومن أبي. . .هي تعرف مثلما أعرف بأنهم مجتمعين خلف باب غرفتنا ينتظرون علامة الدم. . ."[٢٧] .

رمزية(الدم) في ليلة الدخلة –في مجتمع الرواية التخييلي المنغلق على أعراف واهية بالية– ترتبط بمفهوم إثبات رجولة الرجل، والمصادقة على عذرية المرأة ونقاء شرفها . يبدو(عايد) هائمًا في زحمة الأصوات الذكورية المُسدِيَة له نصائح تضمن إتمام عملية الدخلة وإتقانها؛ لكون هذه الأصوات ذات تجربة سابقة، وأولها صوت أبيه الذي رافقه وهو يستجمع تركيزه وسط انتظار من بالخارج علامة الدم التي ستُسكِتُ الشُّبُهاتِ كلها . كان هدف الأب من تزويج ابنه(عايد) بابنة عمّه ذا هدفين اثنين، الأول: مدّ نسل آل(الكهلان) وتكثير عشيرتهم؛ فابنة عمّه تحمل اللقب نفسه، أمّا

[٢٦] – **توفيق**، قاسم، حانة فوق التراب، الطبعة الأولى، دار الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان–الأردن، ٢٠١٥، ص٥٠ .

[٢٧] – **توفيق**، قاسم، حانة فوق التراب، ص٥٥ .

الثاني فهو انتظار نسل(عايد) من ابنة عمّه؛ ممّا سيرفد سلالة العائلة– الواحدة– ويحفظها من الاندثار، وبهذا التوجه يطمئن الأب على استمرارية العرق (الكهلاني) في العشيرة.

في زحمة التفكير الأبوي هذا كان(عايد) على الجهة المقابلة يقاسي عناد زوجته وقد فطنت لمرامي أبيه، فحاولت عرقلة مشروع الأب بتأجيل موضوع الإنجاب انتقامًا من قبحها، وانتقامًا من نفور زوجها منها، واضعة إيّاه على محكّ الاختبار الرجولي أمام أبيه الذي كان يمنّي نفسه بخلفة تحمل نسله، ولكن الموت كان أعجل إليه. هذا الاختبار يمثّل قيمة تقليدية بالنسبة إلى مفاهيم هذه العشيرة، والتي تثمّن فحولة الرجل نسبةً إلى الكم العددي الذي يثري به نسل عائلته. يصف(عايد) هذه المحنة التي واجهته من طرف أبيه وزوجته بقوله:

" كان قد مضى على زواجنا سنتين عندما مات أبي. كعادته في حياته كذلك في مماته ظلّ يلعنني إلى آخر دقيقة في حياته إذ لم أجلب له حفيدًا يطمئنه على بقاء سلالته. متعة (ساجدة) كانت بنجاح محاولاتها في إفشال محاولاتي في أن أجعلها حُبلى، كانت تمتّعها رؤيتي ولدًا ملعونًا. كلّما زاد همّ أبي عندما يسألني إن كانت زوجتي قد حبلت وأردّ عليه بالنفي كان يسقط عليّ لعناته ويصفني بالعاجز، أزهر وجه ساجدة وازداد فرحها. لم أكن معنيًّا بأيّ ارتباط بها ولا حتّى بالأولاد، كنت أسعى لنيل رضا أبي وإسكات هذا العجوز الذي ظلّ يقول لي أمامها، أنت لستَ رجلًا، ولا تساوي امرأة من عشيرة الكهلان. لكثرة ما كان يتكلم أبي عن هذا الأمر، ولشدّة غضبه وتعنيفه لي حتى تهديده بجلدي مثلما كان يفعل معي كلّنا أغضبته في تأخري بإجابة شيء ما يطلبه مني. . .مخالفة أبي في أي مسألة حتى لو كانت عن شيء قرأتهأو درسته في المدرسة وأعرفه أكثر منه كانت تعرّضني للجلد بخيزرانة يخفيها تحت فراشه. صرت اشكّ بأنّ أبي سيصل إلى اللحظة التي سيبيتُ فيها معنا في السرر ليعلّمني كيف أصنع ولدًا." [٢٨]

يرى بعض علماء الاجتماع أنّ الثقافة لا تتغير إلّا بمقدار ضئيل، وليس كل شخص يشترك بنفس الثقافة وبنفس المقدار، بل إنّ معظم أفراد المجتمع يجب أن يشتركوا في معظم المظاهر لثقافة معينة إذا أريد للمجتمع أن يدوم. في المجتمعات

[٢٨]– **توفيق**، قاسم، حانة فوق التراب، ص٥٥.

البسيطة تكون القيم المرتبطة بالمتغيرة هي المسيطرة، حيث يتمّ تقييم الأفراد طبقًا لانتمائهم، فمثلًا الأفراد يساعدون الآخرين أو يوفرون لهم الوظائف لأنهم أعضاء في نفس العائلة أو العشيرة. والثقافة الإنسانية ذات أصل اجتماعي حسب مفهوم(ماركس) لمصطلح الثقافة، وليست انبثاقًا مباشرًا من الطبيعة أو من الغريزة الفطرية في الكائن البشري؛ لذلك تطبع الظروف المادية والفعالية والاقتصادية والاجتماعية والعُرفية. . . الوعيَ الإنساني، وتخلق لنفسها مساحة واسعة في عقول أفراد هذه المجتمعات البسيطة [٢٩].

ومن التحليل الاجتماعي السابق، نجد عشيرة الكهلان قد تعاونوا –من منطلق ثقافتهم التي تحكمهم– على معاونة(عايد) في ليلة دخلته، منتظرين شارة الرجولة والشرف التي سيرفعها لهم بعد نجاح عملية الزواج وفقًا لتوصياتهم المقدَّمة له. فالمفهوم الثقافي لفكرة الزواج والتناسل تطبع أفراد عشيرة الكهلان إلا قلّة قليلة منهم، و(عايد) هو واحد من هذه القلّة التي لم تتأثّر– ضمنيًّا– بثقافة عشيرتها وعلى رأسها أبيه، ولكن فعليًّا لا مناص من الرضوخ لثقافة أبوية ترى في التناسل عملية ضمان للسلالة العائلية المحدّدة بلقب العشيرة أو العائلة.

تناول عالِم العقيدة الأمريكي(كريستوفر باتلر Christopher Butler) وأستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة أكسفورد قضية تفسير النصّ الأدبي في بحث مضمّن في كتاب(التفسير والتفكيك والأيديولوجية)، وعزاها إلى ركنين:

– أُطُر الافتراضات والأفكار التي تشكّل رؤية القارئ للعالم، والتي يُفهم من خلالها النص. وهو ما يسميه بخلفية المعلومات الأساسية.

– استخدام هذه المعلومات الأساسية استخدامًا واعيًا، وهو ما يسميه بمشروع الفهم والتفسير.

ويصف(باتلر) أُطُر التفسير المختلفة وخططه بأنها النظائر العقلية والنفسية العلوية للنظم الإرشادية الاجتماعية، أو نظم المعاني والدلالات في ثقافة معينة، وتقوم هذه الأطر على مبدأ محاكاة الواقع؛ أي إنّ القارئ يفترض أنّ النصّ يحاكي العالم

[٢٩]– **وهولبورن،** هارلمبس، سوشيولوجيا الثقافة والهوّية، الطبعة الأولى، ترجمة: حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١٠، ص ٢٤ وما بعدها.

بصورة ما، ويختار عيّنة من عيّنات التجارب الإنسانية ويركز عليها دون غيرها، ولكن علاقة النص الأدبي بالعالم الخارجي، أو بالإطار العقائدي، أو الفكري السائد خارجه ليست عملية تصوير تعتمد على المحاكاة البسيطة فحسب، إذ إنّ النص كثيرًا ما يخفي حقيقته عنّا بما هو نصّ أدبي خيالي مصطنع، ويقدّم إلينا نفسه بوصفه واقعًا يصل إلينا عبر حجاز شفاف[٣٠].

هذا التوجّه النقدي في عملية تفسير النصّ الأدبي ترى فيه الدراسة مدخلًا مهمًّا للوقوف على نهج(قاسم توفيق) الروائي، فالقارئ يحتاج إلى خلفية من المعلومات الأساسية يحسن توظيفها وهو ينهض بتفسير البنية السردية لِ(توفيق) الذي يُعملُ الخيال في سردياته، واضعًا النصّ في قالب أدبي مصطنع يخبّئ خلفه حقيقته التي يقوم عليها، مع الإبقاء على خيط رفيع يبقي علاقة المتخيل بالواقع قائمة. ومظاهر انعكاسات القيم التقليدية، والأعراف الموروثة السائدة في عقلية بعض الأفراد التي قدّمها(توفيق)، هي من صنع الفكر التخييلي الإبداعي خاصّته، ولكن من منظور النقد الأدبي لا يمكن التعامل معها كشخصيات تخييلية منقطعة عن الواقع.

الخاتمة:

تناولت هذه الدراسة بعضًا من أنماط القيم التقليدية السلبية التي تحكم ذهنية أفراد المجتمعات العربية البسيطة ضمن الفضاء التخييلي المطروح في روايات(قاسم توفيق)، ويغلب على هذه الأنماط المدروسة تسلّط النزعة الذكورية، وغياب القيم التحررية الحديثة لشريحة من أفراد المجتمع وعلى رأسها الأنثى، إذ عانَتْ- كفرد اجتماعي- من هيمنة الأعراف البالية، والعادات المغلوطة السائدة في بيئة فكرية وثقافية ذات صبغة سلطوية ذكورية؛ لذلك اغْتُبِرَتِ مطالبات بعض شرائح هذه المجتمعات ببعض حقوقها من مثل: الحرّية الشخصية، وحقّ تقرير المصير، والانسلاخ عن القيم التقليدية البالية التي لا

---

[٣٠]- ينظر: **إيجلتون**، تيري، و: كيس، سو- إلين، وآخرون، التفسير والتفكيك والأيديولوجية ودراسات أخرى، ترجمة: نهاد صليحة وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٣٦ وما بعدها.

تناسب قيم العصر الحديث وأخلاقياته، اعْتُبِرَتْ مطالبات باطلة.

ووصلت هذه الدراسة إلى عدد من النتائج والتوصيات التي من شأنها أن تلقي الضوء على دور فنّ الرواية في الغوص عميقاً في غياهب بعض المجتمعات؛ بقصد تفنيد قيمًا تقليدية ما زالت إلى يومنا هذا رهن الثقة بأسسها، والإيمان بها كمنظومة ثقافية واجتماعية غير قابلة للعزل أو التغيير. نلخّص النتائج على الشكل الآتي:

- ليس بالضرورة أن يكون مفهوم القيم التقليدية مائلًا للإيجابية، فقد تكون هناك بعض القيم التقليدية تحمل مفاهيم سلبية عن مسمّيات: الشرف، الحريّة، حقّ تقرير المصير، وغيرها .
- وجوب تحلّي الروائي الحديث بسمات الشجاعة والجرأة والجديّة وهو يتناول ظواهر اجتماعية مغلوطة، باتتْ بمنزلة الأحكام السائرة غير قابلة للتفنيد لِقِدَم عهدها، وكثرة انتشارها بين أوساط اجتماعية تتبنّاها على مستوى الشكل والمضمون.
- ليس في الأدب وجود لمصطلح الخطوط الحمراء طالما أنّ المادة السردية لا تخرج عن ثوابت الدّين، والتشريعات الحقوقية، والمسلّمات الأخلاقية. إنّ اجترار بعض شرائح المجتمع البسيطة والمتخلفة لقيمٍ تقليدية لا يعني- بالضرورة- صلاحية جدواها، وإيجابية آثارها على باقي الشرائح، ولو كانت على سعة من الانتشار والاستهلاك. فلكلّ عصر قيمه ومفاهيمه، ولكنّ الثوابت الأخلاقية، والحقوق الإنسانية لا يعتريها تغيير إلّا للأفضل والأحسن.

المصادر والمراجع:

الأعرجي، علاء الدين، "هشام شرابي" بين النظام الأبوي والعقل المجتمعي، مقالة في جريدة القدس العربي، العدد: ٥١٦٧– يناير، الصحيفة رقم(١٠)، لندن، ٢٠٠٦.

أنيس، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، الطبعة الرابعة، تحقيق: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٤.

إيجلتون، تيري، و: كيس، سو– إلين، وآخرون، التفسير والتفكيك والأيديولوجية ودراسات أخرى، ترجمة: نهاد صليحة وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠.

=====، تيري، كيف نقرأ الأدب، ترجمة: محمد درويش، الطبعة الأولى، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٣.

توفيق، قاسم، رواية صخب، الطبعة الأولى، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١٥.

=======، رائحة اللوز المرّ، طبعة خاصة بالمؤلف، دائرة المكتبة الوطنية، عمّان، ٢٠١٤.

=======، رواية البوكس، الطبعة الثانية، دائرة المكتبة الوطنية، عمّان، ٢٠١٤.

=======، حانة فوق التراب، الطبعة الأولى، دار الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠١٥.

الحمداوي، جميل، أسس علم الاجتماع، الطبعة الأولى، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ٢٠١٥.

الداديسي، الكبير، ، أزمة الجنس في الرواية العربية بنون النسوة، الطبعة الأولى، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ٢٠١٧.

ستيورات مل، جون، استعباد النساء، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨.

شرابي، هشام، النظام الأبويّ وإشكاليّة تخلّف المجتمع العربي، نقله إلى العربية: محمود شريح، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٢.

طالبي، حفيظة، تعدّد أشكال الحجاب وعلاقته بالتغيير الاجتماعي في المجتمع الجزائري، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان– الجزائر، ٢٠١٤.

علوش، سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٥.

عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، الطبعة الأولى، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٨.

قاسم، سيزا، و: **أبو زيد،** نصر حامد، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة(مدخل إلى السيميوطيقا، مقالات مترجمة ودراسات)، دراسة مترجمة لِ: (جان موكاروفسكي) بعنوان: الفن باعتباره حقيقة سيميوطيقية، شركة دار إلياس العصرية، القاهرة، ١٩٨٦.

فتحي، إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبية، الطبعة الأولى، مؤسسة التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس– تونس، ١٩٨٦.

قاسم، سيزا، و: **أبو زيد،** نصر حامد، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة(مدخل إلى السيميوطيقا، مقالات مترجمة ودراسات)، دراسة مترجمة لِ: (جان **موكاروفسكي**) بعنوان: الفن باعتباره حقيقة سيميوطيقية، شركة دار إلياس العصرية، القاهرة، ١٩٨٦.

ليتش، جيوفري، مبادئ التداولية، ترجمة: عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء،٢٠١٣.

ليرنر، غيردا، نشأة النظام الأبوي، ترجمة: أسامة إسبر، بدون رقم طبعة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، بدون تاريخ.

المرنيسي، فاطمة، ما وراء الحجاب (الجنس كهندسة اجتماعية)، ترجمة: فاطمة الزهراء أزرويل، الطبعة الرابعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب، ٢٠٠٥.

وهولبورن، هارلمبس، سوشيولوجيا الثقافة والهويّة، الطبعة الأولى، ترجمة: حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١٠.

المراجع الإلكترونية:

يعقوب، أوس، قاسم توفيق الرواية والمخبوء والمهمل والممنوع والقبيح ثقافيًا(مقال إلكتروني)، تاريخ النشر٢٠١٦/٠٤/٠٧، تاريخ الدخول إلى الرابط: ww.thaqafat.com، ٢٠١٩/٠٩/١٣، ١٦:١٥) .